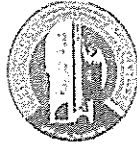


Ministry of Higher Education  
and Scientific Research  
Wasit University - Education college  
Education College Magazine



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة واسط - كلية التربية  
مجلة كلية التربية

Nº 000007

العدد ٤٤

التاريخ ١٤/٩/٢٠١٥

التي حضرتها: الدكتور عبد الخالق عيسى المحترم  
جامعة ابن تيمية / نابلس / فلسطين



م / قبول نشر

تحيةة طيبة:

من دواعي سرور هيئة تحرير مجلة كلية التربية اعلامكم بقبول

ببحثكم الموسوم )

الثنائية المنهجية للترحيل في شعر أبي تمام

للنشر في الأعداد القادمة . راجين الاستمرار في دعم مجلتنا

بمزيد من الأبحاث الرصينة

مع فائق الاحترام



الرئيس

رئيس هيئة التحرير

أ.د. كاظم حمد محراث

١٤/٩/٢٠١٥

## الثنائية الضدّية للرحيل في شعر أبي تمام

### الملخص

يتناول الباحث موضوع الرحيل في شعر أبي تمام ؛ لما عُرف عن هذا الشاعر من كثرة ترحاله ، وتنقله بين الأمصار ، باحثاً عن الفائدة العقلية والمادية ، وقد لاحظ الباحث تباين مواقف الشاعر ، فأحياناً يمجد الرحيل ، ويرغب فيه، فيدعو إلى الحركة والتنقل ، مبرراً ذلك بمنافع جسدية ، أو عقلية ، أو روحية ، وأحياناً يمقته، ويدعو عليه . وقد يتحدّث طويلاً عن آلام النفس أثناء وداع الأهل والأحبة ، فيكشف عن عداً واضح للرحيل، يحاكي عداًه للعدو .

وارتبطت صورته المتنوعة بحالاته النفسية ، ومواقفه من أهل الأماكن التي زارها ، أو مواقفه من أحبته وأهله المفارقين .

### Opposing Attitudes Towards Departure in Abi Tamam's Poetry

#### Abstract

The researcher talks about departure as a dominant subject in Abi Tamam poetry. The researcher has chosen this subject in particular as it's well-known that Abu Tamam used to travel a lot among different countries searching for mental and physical knowledge.

Researchers noticed that the poet's attitudes towards departure are not stable; they are unsteady. On the one hand, he praises travelling, urging and pushing people to travel and move justifying that by the physical, mental, or spiritual profits that the traveler can gain. On the other hand, he hates and curses it. He might talk about the self suffering as he says goodbye to his family and lovers. He reveals real aversion towards departure considering it an enemy.

All the images in his poetry result from his psychological status, his attitudes towards the people of the places that he visited, and his attitudes towards his family and lovers whom he left behind.

## المقدمة

يعدّ أبو تمام من الشعراء الكبار الذين قعدوا منها فنياً، وأرسوا له مبادئ وأصولاً استقلت عن الموروث، وحددت قيماً جديدة، أفاضت على الشعر العربي فأغنته، وغدت سيقانه، فأورقت، فأطلت من بينها ثماراً جديدة، فيها مذاق، لم يعتد عليه الوعي الجمعي العربي الأصيل، فبدا الاستهجان، وتواتت الأصوات الرافضة، تخوفاً من هدم الموروث، أو خدش قداسة عناصر عمود الشعر، التي اتصل مع كل عنصر منها عيارٌ يقوم على الدربة أو الطبع، أو الرويّة، أو الذوق السليم، أو غير ذلك.

فقدّم لنا أبو تمام نصوصاً حملت تجديدًا نوعيًا، فدخل على القصيدة العنصر العقلي بقوة، وأصبح هو الموجّه الأساسي، فعمّق القصيدة بمعطيات الفلسفة الإغريقية، ووسّع في تحليل الأمور واستقصائها. ومن بين الموضوعات اللافتة موضوع الرّحيل، فقد تناوله من وجوهه كلّها؛ فعرض للجانب الإيجابي فيه؛ تجاه النفس والجسد والعقل، وعرض للنقيض في الجوانب نفسها؛ فشكّل رؤية متكاملة، توضح من خلالها موقف الشاعر من الأمكنة التي زارها، ومن قاطنيها، مقدّماً حالات نفسية متعددة . فإذا كان مطمئنًا للمكان وأهله جاء النص هادئاً، فيه ما يُبارك الغربة والحركة، وإلا فالأمر مختلف، وفيه ما يدعو إلى الوقفة والتساؤل .

الثنائِيَّة الضدِّيَّة للرحيل في شعر أبي تمام

الثنائِيَّة الضدِّيَّة ( antibody Bilateralism ) بنية لغويَّة ظاهرة في النَّسق ، أو مضمره ، تُظهر في تباينها إبداعاً وجمالاً ، وتعدّ ترجمةً لنفسيَّة الشاعر ومكوناته الدَّاخليَّة ، وتقوم على الرِّبط بين الظواهر المنفصلة والتَّعالق بينها ، تنشأ من شعورين مختلفين يعيشهما الشاعر ، فيستيقظ عنده إحساسان متضادان ) . غيثاء قادرة)

وللثنائيات الضدِّيَّة فاعلية كبيرة في بناء النَّصِّ الشعري ؛ وهذا يتحقَّق بتوالد الأنساق وتباينها ، ويكون في الشَّعر على مستوى الشكل ، أو اللفظ المفرد ، أو التركيب اللغوي ، أو على مستوى المضمون ، في إطار معرفة قيم الواقع ، ومعطياته ) . أحمد العرود)

والثنائيات ملمح مهم من ملامح الوجود ، وتشكِّل الخطوط العامة لمعظم الظواهر الكونيَّة ، كالسَّماء والأرض ، والليل والنَّهار ، والذكورة والأنوثة ، والشرق والغرب ، والشَّمال والجنوب ، والحضور والغياب ، والبقاء والفناء ، والوصل والفصل ، والعودة والرحيل ، والظَّلْمَة والضِّيَاء ، والحياة والموت . وقد يتقابل الطرفان المتضادان أو يتكاملان ، ولا أهمية لطرف منهما بمعزل عن الآخر ، ممَّا جعل بعض الفلاسفة والمفكرين يرون أنَّ الوجود كلُّه بني على الثنائيات .

وعرّف المعجم الفلسفي الثنائية بأنَّها ما كان ذا شقين ، وهي القول بزوجية المبادئ المفسِّرة للكون ، كثنائية الأضداد وتعاقبها ، أو ثنائية الواحد والمادة ، أو ثنائية الواحد وغير المتناهي عند الفيثاغورثيين ، أو ثنائية عالم المثل وعالم المحسوسات عند أفلاطون ، والثنائية مرادفة للثنائية ، وهي كون الطبيعة ذات مبدئين ، ويقابلها كون الطبيعة ذات مبدأ واحد ، أو عدة مبادئ ( الثنوية والأثنائية )

### الصورة الإيجابية:

قدّم أبو تمام حكماً كثيرة يعالج فيها علاقة النفس بالمكان ، وهوائه ، وجغرافيته ، وسكَّانه ، فقد كان رحالة ، يعي أهمية الترحال في اكتساب المعارف ، وصقل الرُّوح ، فترك الشام موطنه ، ورحل إلى مصر ، ورضي أن يعمل سقَّاء في جامع عمرو بن العاص وتردّد بين الشام ومصر والعراق وخراسان ؛ لتحقيق غايته التي رحل لأجلها ؛ وهي النهل من حلقات العلم والأدب ، وفي ذلك يقول :

ما اليوم أول توديع ولا الثاني	البيئ أكثر من شوقي وأحزاني
دع الفراق فإن الدهر ساعده	فصار أملك من رحي بجماني
خليفة الخضر من يزغ على وطن	في بلدة فظهور العيس أوطاني
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا	بالرقنين وبالفسطاط إخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت	حتى تطوح بي أقصى خراسان
خلفت بالأفق الغري لي سكناً	قد كان عيشي به خلواً بخلوان
عصن من البان مهتر على قمر	يهنر مثل اهتزاز العصن في البان
أفريت من بعده فيض الدموع كما	أفريت في هجره صبري وسلواني
وليس يعرف كنه الوصل صاحبه	حتى يغادى بنأي أو بهجران
إساءة الحاديات استبطني نفقاً	فقد أظلك إحسان ابن حسان
أمسكت منه بود شد لي عقداً	كأنما الدهر في كفي بها عان
إذا نوى الدهر أن يودي بتالده	لم يستعن غير كفيه بأعوان
لو أن إجماعنا في فضل سؤديه	في الدين لم يختلف في الأمة اثنان <sup>(1)</sup>

ينفتح النص على شخصية الخضر صاحب موسى . عليه السلام . في كثرة ترحاله،  
 لتقاطع التجريتان في السعي وراء المعرفة الموزعة في الأمكنة وبين الناس، فتتحقق لدى  
 المتلقي بعد معاينة التجريتين فائدة مضاعفة، فضلا عن ذلك فإن الاكتفاء بتحليل النص  
 المائل وحده يغلق النص على وحداته وبنياته<sup>(2)</sup>

فالنص الغائب أو الشخصيات المذكورة مكون رئيسي للنص المائل؛ " ذلك أن النص  
 المائل لم ينشأ من لا شيء؛ وإنما تغذى جنينيا بدم غيره، ورضع حليب أمهات عديدات،  
 وتداخلت فيه مكونات أدبية وثقافية متنوعة، وقد كان من شروط تعلم الشعر، عند العرب، أن  
 يطلب من الشاعر في مرحلة التلقي أن يحفظ كثيرا من أشعار غيره بما فيها من حكم وأمثال

(1) أبو تمام : الديوان ، شرح الخطيب التبريزي ، تح محمد عبده عزّام، دار المعارف، مصر، 1964، 308١3 .  
 311 .

(2) محمد عزّام: النص الغائب، تجليات التناس في الشعر العربي الحديث، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق،  
 2011 م، ص 8 .

ومعارف تاريخية وجغرافية ودينية ، ثم ينساها، في مرحلة العطاء الشعري، لتدخل محفوظاته هذه في تسيج عطائه، ولكن في شكل جديد ، وهكذا يُغذّي اللاوعي الوعي.

يُحكى عن خالد بن عبدالله البشري أنه قال: "حفظني أبي ألف خطبة، ثم قال لي: تناسها، فتناسيتها، فلم أريد بعد ذلك شيئاً من الكلام إلا سهل عليّ. واصطنع ابن خلدون مصطلح ( نسيان المحفوظ ) ودعا رولان بارت ( تضمينات من غير تنصيص ) وهكذا ننهي إلى أن كل نص مائل إنما هو مجموعة من النصوص الغائبة . (3)

أطلّ أبو تمام على المتلقي بفلسفته في حركة الحياة وتجديدها من ثنائية اللقاء والفرق، وجدلية الوداع، فجاء الخضر رمزا للحياة التي لا تعرف الفناء، أو التحول، ومن أراد أن يجد له مكانا في هذه الدنيا جعل اللقاء والوداع سبيلا يوصله إلى النجاة، فيحافظ بذلك على الإرث الإنساني الذي تشترك فيه العناصر البشرية، ولم يجعل نفسه وحيدا في المحافظة على هذا الإرث، بل أشرك الشام وبيجاد والفسطاط، وخراسان وغيرها . (4)

وقد دعا أبو تمام إلى رقد الروح والجسد؛ في تغيير الأمكنة، والناس. وفي هذا خيرٌ وفيّز، فهو لم يتذوق أطيّب من نوم المشرد الذي لا يستقرّ في مكان، يقول:

ولكنني لم أحوّ وفرا مجمعا      ففرت به إلا بشمل مبدد

ولم تُعطني الأيام نوما مسكنا      ألدُّ به إلا بنوم مشرد<sup>(5)</sup>

وقال أحدهم في هذين البيتين: "لله درّه، لقد تقدّم صاحبكم في هذا المعنى جميع من سبقه على كثرة القول فيه، حتّى لحبّ الاغتراب... " (6)

(3) المرجع السابق ، ص 11.

(4) ينظر سليطين، فيصل : أبو تمام في دائرة الضوء- دراسة وتحليل، دار الينايع، دمشق ، ط1، 2007، ص 86 .

(5) أبو تمام ، الديوان ، 23 12

الصّولي ، أبو بكر محمّد بن يحيى: أخبار أبي تمام، حقّقه وعلّق عليه محمّد عبده عزّام وآخرون، قدّم له أحمد أمين، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ط3 ، 1980 ، ص 60 .

"ومن هنا يظلُّ النَّصُّ منفصلاً عن القارئِ ومَنصَّلاً به في آن، كما يظلُّ فاعلاً ومنفعلاً، ومؤثراً ومتأثراً، وتصبح عملية إنتاج النَّصِّ المائل عملية تشترك فيها النُّصوص الغائبة، باعتبارها الأدوات الأساسية للإنتاج مع النَّصِّ المائل، بوصف القارئ هو الأداة الثانية في تفسير النَّصِّ وتأويله، وتظلُّ عملية القراءة هي عملية أخذ وعطاء: أخذ من النَّصِّ، وعطاء له من المخزون الأدبي والثَّقافي للقارئ. وهكذا يتفاعل النَّصان الغائب والمائل في إنتاج نصٍّ جديد، يشكّل في الوقت نفسه تناصاً مع مكوّنات الثَّقافة ...". (7)

ويقارب أبو تمام بين حركة الإنسان وتعاقب الليل والنَّهار، فلو عاش النَّاس في ظلمة أو في نور دائمين لملأوا الحياة، ولمقتوا الشمس، لكنَّ التغيّر كان أطيب وأهدأ للنفس، يقول:

وطولُ مقامِ المرءِ في الحَيِّ مُخلِقٌ      لِدِيابِجَتَيْهِ فَاغْتَرِبَ تَتَجَدَّدِ

فإنِّي رأيتُ الشَّمسَ زِيدتُ مَحَبَّةً      إلى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسِرْمَدِ (8)

وفي هذا المعنى قال أحدهم: " كَمَلَّ وَاللَّهِ، إِنْ كَانَ الشَّعْرُ بِجُودَةِ اللَّفْظِ، وَحَسَنِ الْمَعْنَى، وَاطَّرَادِ الْمُرَادِ، وَاسْتَوَاءِ الْكَلَامِ، فَصَاحِبِكُمْ هَذَا أَشْعَرُ النَّاسِ ...". (9)

إنَّ اللذة تتحقق في هذين البيتين عبر الإدراك الجمالي المنوط بالعقل، أول مراتب التَّقوي، وركنها الجمالي الأساس.

والرَّاحة تأتي بالتَّعب والترحال، وهذا من المعاني التي تشحن النَّفس، وتقوي عزمها على التَّجوال والرَّحيل، وتقتل النَّبات الذي ينهكه التكرار في نمط الحياة والفكر (10) يقول:

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا      ثَالِإِ عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ (11)

(6) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص 60 .

(7) محمد عزام : النص الغائب ، تجليات التناص في الشعر العربي الحديث ، ص 12 .

(8) أبو تمام : الديوان ، 23١2 . الصولي : أخبار أبي تمام ، ص 61

(9) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص 61 .

(10) ينظر : سليطين ، فيصل : أبو تمام في دائرة الضوء . دراسة وتحليل ، ص 9 .

فربّ دعةٍ تحتَ تعبٍ، وربّ غنى تحتَ عناءٍ، ونضرةٍ وجمالٍ تحتَ شحوبٍ،

يقول:

ربّ خَفَضِ تَحْتَ السَّرَى وَعَنَاءِ مِنْ عَنَاءٍ وَنَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبٍ . (12)

إنّ هذا التّقابل بين ثلاثة نوافر أضداد في بيت واحد يقدّم طاقةً روحيةً مشحونةً برغبات كبيرة في الإسراع بالحركة والتّقلّب؛ لإحداث تغييرات كبيرة في واقع الحياة .

ويختار لتحقيق هذه الغاية الكبيرة في مكان آخر حصاناً ذا حوافر صلبة قويّة، يساعده على تحقيق ماأربه العظيمة، يقول :

بِحَوَافِرِ حُفْرٍ وَصُلْبِ صُلْبٍ وَأَشَاعِرِ شُعْرِ وَخَلْقِ أَخْلُقِ (13)

وقد عبّر عن مقاصده بثلاثة ألفاظ اشتقّ منها ألفاظاً تجانسها، وترك للمتلقي مجالاً لأن يشتقّ ألفاظاً أخرى من عائلتها، فأتى بالكليات لتكون أساساً. والكليات تعدّ من الدعامات الأساسية التي تأسست عليها اللغات؛ لتفسح المجال لانتظام مسميات كثيرة في أزواج، أبرزها الثنائيات المشهورة التي لازمت كلّ فكر " أكان ابتدائياً بسيطاً، أم متطوراً معقداً متشعباً، وهذا يتضمّن شيئاً من العود إلى انبجاس المعاني في الألفاظ التي تسمّت بها أشياء الوجود ومكوّناته" (14)

ويمضي إلى تشخيص جسدي ومعنوي مرتبط بالتّثبات والحركة، مقدّماً رأيه من تجاربه في محطات الحياة فيقول:

(11) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص 113 .

(12) أبو تمام : الديوان 1 \ 119 . البديعي ، الشيخ يوسف : هبة الأيام فيما يتعلّق بأبي تمام ، تح عبدالإله نبهان ، عبدالكريم الحبيب ، المجمع الثقافي ، الإمارات العربيّة المتحدة ، أبو ظبي ، 2003 ، ص 71 .

(13) أبو تمام : الديوان 2 \ 410 .

(14) الواد ، حسين : اللغة الشّعريّة في ديوان أبي تمام ، دار الجنوب ، تونس ، ص 72 .



تَعِبُ الْخَلَائِقِ وَالنَّوَالِ وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُسْتَرِيحِ الْعَرِضِ مَنْ لَمْ يَتَّعِبِ (15)

هذا هو مرض الرّاحة الذي سبق به أبو تمام المتنبّي ليفيد منه الثاني ويقول:

وما في طبّه أنّي جَوَادٌ      أَضُرُّ بِجِسْمِهِ طَوْلُ الْجَمَامِ (16)

و :

ذُرَانِي وَالْفَلَاةُ بِلَا دَلِيلٍ      وَوَجْهِي وَالْهَجِيرَ بِلَا لِيَامِ

فَأَنِّي أَسْتَرِيحُ بِذِي وَهَذَا      وَأَتَعَبُ بِالْإِنَاخَةِ وَالْمَقَامِ (17)

ويواصل أبو تمام طرق الرحيل فيوجد بين الأماكن والبلدان، فمن تعود على الرحيل استشعر الأشياء على وجه مشبع بالحكمة، يقول :

وَقَلَّلَ نَائِيٍّ مِنْ خِرَاسَانَ جَاشَهَا      فَفَلْتُ اطْمِئِنِّي أَنْضُرُ الرَّوْضِ عَازِبُهُ (18)

وبالعزم والتّصميم، والحركة، والصّبر يدرك الإنسان مطالبه وأهدافه، ويصل إلى النّجاح، كما نجح يوسف عليه السلام في التّغلب على شهوة النّفس والجسد أمام نساء مصر، على الرّغم ممّا تعرّض له، يقول :

هُنَّ عَوَادِي يَوْسُفٍ وَصَوَاحِبُهُ      فَعَزْمًا فَقَدِمَا أَدْرَكَ السَّوْلَ طَالِبُهُ (19)

ومن باشر الأسفار وترك الدّعة وصل إلى مقاصده، وعاش راضيا، ولا يأتي ذلك حتّى يكون المرء أقوى وأخشن من الليل البهيم، بما فيه من خوف، وغموض .

(15) أبو تمام : الديوان 104\1.

(16) المتنبّي : الديوان ، شرح عبدالرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 279\4 .

(17) المصدر السابق ، 273\4 .

(18) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص 115 .

(19) المصدر السابق ، ص 115 .

والمرء المسالم الهادئ لا يقوى على الأمور العظيمة؛ لأنها تحتاج إلى من يصارع  
المصاعب، ويخوض الغمار. يقول:

أعاذتني ما أحشَنَ اللَّيْلَ مَرْكَبًا      وَأَحْشَنَ مِنْهُ فِي الْمُلَمَّاتِ رَاكِبُهُ  
ذَرِينِي وَأَهْوَالَ الزَّمَانِ أَفَانِيهَا      فَأَهْوَالُهُ الْعُظْمَى تَلِيهَا رَغَائِبُهُ  
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الزَّمَاعَ عَلَى السَّرَى      أَخُو النُّجُحِ عِنْدَ النَّائِبَاتِ وَصَاحِبُهُ؟<sup>(20)</sup>

...

فِيهَا أَيُّهَا السَّارِي اسْرٍ غَيْرِ مُحَاذِرٍ      جَنَانَ ظِلَامٍ أَوْ رَدَى أَنْتَ هَائِبَةٌ<sup>(21)</sup>

ولا يطرد الهم سوى الرحيل، وسبيل الهم إلى النفس عند أبي تمام هو الفلق الوجودي،  
والأزمة من رفض الواقع، والرغبة في واقع مثالي، يلبي حاجات النفس وتطلعاتها، يقول:

لا يطرُدُ الهمَّ إلا الهمُّ من رَجُلٍ      مُقْتَلٍ لِبَنَاتِ الْفَقْرِ النَّعْبِ<sup>(22)</sup>

وهو يبحث عن رجل كثير الرضا في ساعة الغضب، فيرحل إليه ليلا ليكون عنده وقت  
الصباح فيتماهى نداه بندى الصباح المعطاء؛ وقد يكون المخاطب هو النصف الآخر الذي  
يبحث عنه ليكمل به شخصيته أو لعله يسقط على المخاطب ما يحلم به. يقول:

سَتَصْنِخُ الْعَيْسُ بِي وَاللَّيْلُ عِنْدَ فَتَى      كَثِيرِ ذِكْرِ الرِّضَا فِي سَاعَةِ الْعُضْبِ<sup>(23)</sup>

وكما يطلب الراحة والنوال بالتثقل يطلب الحب، ولهذا يتعهد بالمداومة على الرحيل  
إلى الأحبة، متناسيا آلامه وهمومه، فالحب المقدس يتأتى بالرحيل والمعاناة، لتتحد كوامن

<sup>(20)</sup> أبو تمام : الديوان 1 \ 218 . 219 .

<sup>(21)</sup> المصدر السابق : 1 \ 229 .

<sup>(22)</sup> الهم : العزم . النعب : النجب . أبو تمام : الديوان 1 \ 111 .

<sup>(23)</sup> المصدر السابق : 1 \ 112 .

النفس مع رغبات الجسد تحت حر الشمس في صحار ممتدة تستبطن المكنونات، وتوظف المناطق المظلمة في النفس. يقول:

بمُلْتٌ عَلَى الْفِرَاقِ مُرَبِّ      وَلِشَأْوِ الْهَوَى الْبَعِيدِ طُنُوبِ<sup>(24)</sup>

وقد سار في الاتجاهات كلها فأوغل في الشرق حتى نسي المغرب، وغرب فأوغل حتى نسي المشرق، وهذه هي رحلة التناهي التي لا نجد لها سوى عند من يحلم بالمطلق، ويبحث عن كسر التوازن في المتطلبات المادية والروحية. يقول :

وَعَرَبْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ ذِكْرَ مَشْرِقٍ      وَشَرَقْتُ حَتَّى قَدْ نَسِيتُ الْمَغَارِبَ<sup>(25)</sup>

وهو رجل عالم بالشرق والغرب، ولهذا يستغلُّ مثلاً قاله الحُباب بن المنذر يوم السقيفة: "أنا جُدَيْلُهَا، المحكَّكُ وَعُدَيْقُهَا المرَجَّبُ"<sup>(26)</sup>، وهو يُضْرِبُ لِمَنْ يُسْتَشْفَى بِرَأْيِهِ، فَالْجُدَلُ خَشْبَةٌ تَحْتَكُ بِهَا الْإِبِلُ الْجَرَبِيَّ، وَالْعِدْقُ النَخْلَةُ، وَالتصغير فيهما للتعظيم والتفخيم، يقول:

فَقَدْ أَكَلُوا مِنْهَا الْغَوَارِبَ بِالسُّرَى      وَصَارَتْ لَهَا أَشْبَاحُهُمْ كَالْغَوَارِبِ

يَقُودُ نَوَاصِيهَا جُدَيْلٌ مَشَارِقٍ      إِذَا أَبَهُ هَمٌّ عُدَيْقُ مَغَارِبِ<sup>(27)</sup>

ولهذا فهو لم يكن ليغمُرَ مكانا مقفرا؛ بالاستقرار فيه وملازمته، والتفكير بالتوحد مع مكنوناته، فكل البلاد بلاده، وسبب ذلك رغبته في التفوق على الناس الذين اتسعت البلاد التي عمروها لأحلامهم، فاكتفوا بها وما لزمهم دوام الترحال. يقول :

---

<sup>(24)</sup> المُلْتٌ : اللزوم للشيء، ويقال أُلْتُ بالمكان وأُرَبُّ ، ويقال كذلك في المطر إذا دام أياما ؛ أي صحبته بدمع ملئت دائم على الفراق لا ينقطع ما دام الفراق ، ولا يزال طالبا لشأو الهوى جاريا في إثره .

أبو تمام : الديوان : 1 \ 117 .

<sup>(25)</sup> المصدر السابق: 1 \ 140.

<sup>(26)</sup> الميداني : مجمع الأمثال ، تح محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار النصر ، ( د. ت ) ، 2021  
المرجَّب : هو الذي جُعِلَتْ له دعامة نقيه العواصف .

<sup>(27)</sup> البديعي : هبة الأيام فيما يتعلَّق بأبي تمام ، ص 132 .

سَلِي هَلْ عَمَزْتُ الْفَقْرَ وَهُوَ سَبَابٌ وَغَادَزْتُ رَيْعِي مِنْ رِكَابِي سَبَابًا<sup>(28)</sup>

ولا يكفي بتقرير الظواهر والأفكار، وإنما يرمي أسئلة تؤكد مقاصده، فتزيد من قناعاته. وأحياناً يجيب عن بعضها، وأخر ينتظر الإجابة من غيره. وهو يكثر من أسئلته إلى الأمكنة، والإجابة عنده واحدة، مختلفة عن المؤلف، فهي لا تجيب سائلها، ولا تأخذ من همومهم، لذلك يتجاوزها ويبحث عن غيرها. وفي هذا رفض لقدسية احتملها الذهن الجمعي، وأدمن عليها. يقول:

مِنْ سَجَايَا الطُّلُولِ أَلَا تُجِيبَا فَصَوَابٌ مِنْ مُقَلَّةٍ أَنْ تَصُوبَا

فَاسْأَلْنَهَا وَاجْعَلْ بُكَاءَكَ جَوَابًا تَجِدُ الشُّوقَ سَائِلًا وَمُجِيبًا<sup>(29)</sup>

ويطمئن الناقة الحرة الكريمة، ويسر لها أن رحيلها أمر مكتوب عليها، فما خلقت لتبرك، أو تستقر في مكان واحد؛ وفي هذا إعلاء من شأنها، وتعرض بالبشر الذين استقروا في مواقعهم، وركنوا إلى ما عندهم، فقبلوا الحياة بما فيها، فتقرمت أحلامهم. يقول:

أَقُولُ لِحَرَّةِ الْوَجْنَاءِ لَا تَهْنِي فَقَدْ خُلِقْتَ لغيرِ الْحَوْضِ وَالْعَطْنِ<sup>(30)</sup>

لقد حدّد أبو تمام غايةه ويحث "عن الحسّ الجماعي السامي، الذي يمثل الوحدة المنسجمة الراضية لكل ما يمزق وحدة المجتمع الإنساني، وحدة تبتعد عن العرقية، واللون واللغة والميراث ..."<sup>(31)</sup>

وأبو تمام يؤمن أن الرحيل أمر مكتوب على البشر، فكل مكان لا تنقطع الحركة منه، فثمة راحلون، وثمة وافدون :

أَكْثَرَ الْأَرْضِ زَائِرًا وَمَزُورًا وَصَعُودًا مِنَ الْهَوَى وَصَبُوبًا<sup>(32)</sup>

<sup>(28)</sup> أبو تمام : الديوان 1 \ 140 .

<sup>(29)</sup> المصدر السابق 1 \ 158

<sup>(30)</sup> البديعي : هبة الأيام فيما يتعلّق بأبي تمام ، ص 139 . الوجناء : الناقة الشديدة ، والعطن : مبرك الإبل .

<sup>(31)</sup> سليطين ، فيصل : أبو تمام في اثره الضوء ، ص 42 .

ويلاحظ أنّ أبا تمام لم يذكر الأمكنة ذكرا مجردا ليقصر الأمر على وصف المعالم، وإنما يأتي على ما شهدته الأمكنة من طقوس حياة، وتجارب روحية، فالمكان الذي يذكره في البيت السابق شهد تجارب في الهوى بعضها سلس خال من المنغصات ( صبوب ) وبعضها حمل آلاما وهموما ( صعود ).

ويكمل لوحة المكان والفرق أحيانا بوصف الأزياء الجميلة المزركشة التي كانت ترتديها النساء، والمستمدّة من الحضارة العباسية الجديدة، يقول :

وَكِعَابَا كَأَنَّمَا أَلْبَسْتَهُمَا      عَفَلَاتُ الشَّبَابِ بُرْدَا قَشِيْبَا<sup>(33)</sup>

وكما أنّ الرّحيل مكتوب على البشر، فهو مكتوب على القمر أيضا، يختلف عن بعض الخلائق ليطلع على غيرهم، وله العذر في ذلك، فهو ليس ملكا لأحد، ولا يخرج عن الغاية التي خلق لها. يقول:

حازكَ البينُ حينَ أصبحتِ بدرا      إنّ للبدْرِ في التَّنَقُّلِ عُذْرًا<sup>(34)</sup>

هذه عدالة القدر أخذ وعطاء، وقوف ورحيل، نور وظلام. فالقمر في هذا البيت هو الدالة الوجودية على الثنائية التي تحقق العدل والتوازن.

والرّحيل مقدّر على الشمس فتغيب، فلا ندرك جمالها ونفعها حتّى ترحل:

بَيْنَ البينِ فَقَدَهَا قَلَمًا تع      رفُ فقدا للشمسِ حتّى تغيبا<sup>(35)</sup>

وفي غياب الشمس أيضا حركة وجودية أخرى منسجمة مع التلّون في قواعد الأشياء، ومرتبطة بحاجات نفسية عند الشاعر تجعله يستدعي العناصر من مواقعها، لتشاركه الرأي وتدعم موافقه .

(32) أبو تمام : الديوان 1 \ 158 .

(33) المصدر السابق 1 \ 158 .

(34) البديعي : هبة الأيام فيما يتعلّق بأبي تمام ، ص 50 .

(35) أبو تمام : الديوان 1\158.

وهو مقدر على الفصول فتعاقب، يقول:

أولا ترى الأشياء إن هي غيّرت      سمجت وحسن الأرض حين تُغيّر<sup>(36)</sup>.

فتعاقب الفصول يزيل الملل من النفوس، ويعيد شحنها، ويزودها بطاقات جديدة من الأمل والتفاؤل وحب الحياة. ولهذا يوجه أبو تمام الناس ليتأملوا في صور الطبيعة بعد رحيل الصيف والخريف ومجيء الشتاء والربيع :

يا صاحبَيَّ تَقْصِيَا نَظْرِيكُما      تَرِيَا وجوهَ الأرضِ كَيْفَ تَصَوِّرُ<sup>(37)</sup>.

ولم يكن لينسى الحديث عن بداية الخصب والنماء، فقد ربطهما بتكسر ذرات التراب بعد رحيل الفصول وتعاقب التحولات. يقول :

رَفَّتْ حَوَاشِي الدَّهْرِ فَهِيَ تَمَرَّمُ      وَعَدَا الثَّرَى فِي حَلِيهِ يَتَكَسَّرُ<sup>(38)</sup>.

ويقف على تعاقب الشهور وما فيها من تحولات إيجابية، يقول:

قالوا جفاك فلا عهد ولا خبر      ماذا تراه دهاه قلت أيلول

شهر كأن جبال الهجر منه فلا      عقْد من الوصل إلا وهو محلول<sup>(39)</sup>

و:

ما عاقتي عنك أيلول بلدته      وطيبه ولنعم الشهر أيلول

لكن توقع وشك البين عن بلد      تحله فوكاء الدمع محلول<sup>(40)</sup>

---

<sup>(36)</sup> المصدر السابق 1942.

<sup>(37)</sup> المصدر السابق 1942.

<sup>(38)</sup> المصدر السابق 1912

<sup>(39)</sup> البديعي : هبة الأيام فيما يتعلّق بأبي تمام ، ص 80 .

<sup>(40)</sup> المصدر السابق ، ص 79

ويُسْقِطُ على ممدوحه رغبته بالرحيل المتواصل، وهذا يشير إلى أَنَّ الرّحيل وظَّف في نصوص المديح، لأنَّ في الرحيل قدرة على التّحمّل، وشجاعة عظيمة، وتجربة تغذّي الروح والجسد، يقول:

أطلَّ على كُلى الآفاقي حتّى      كأنَّ الأرضَ في عَيْنِيهِ دارُ  
...ثمَّ يواصل:

وما لي ضيعةً إلا المطايا      وشِعْرٌ لا يُباعُ ولا يُعازُ (41)

فالشاعر جعل لنفسه فضاءين: الفضاء الأول هو المطايا، والفضاء الثاني هو الشعر؛ وكأنه يصرّح أنَّ الشعر يحتاج إلى حركة وحرية حتّى يكون شعرا معبرا ونافعا، والخيال لا يتخصّب أو يحلّق حتّى يحلّق صاحبه في أصقاع الأرض وفي المديح أيضا، يقول:

أنت المقيمُ فما تغدو رواحلهُ      وفِغْلُهُ أبدا منه على سفرٍ (42)

واستغلَّ أبو تمام الترحال وضمّنه في موضوع الرثاء، ومن ذلك:

أنزلته الأيام عن ظهريها من      بعد إثبات رجليه في الرّكاب (43)

وفي البيت استعارة غريبة، أنكرها القدامى عليه، فقد أوجد علاقة بين رحيل المرثي عن الدنيا ونزول المسافر عن دابته ليستريح. وأرى أنَّ الشاعر أراد القول: إنَّ الحياة قائمة على الحركة، فإذا سكن المرء واستقرَّ خرج من الحياة .

---

(41) أبو تمام : الديوان 155\2 . 160 . وقد أفاد المنتبّي من هذا المعنى ، فقال :

أعرّ مكان في الدّنى سرجُ سابعٍ      وخَيْرُ جَلِيسٍ في الزّمانِ كتابُ

المنتبّي : الديوان 319\1 .

(42) البديعي : هبة الأيام فيما يتعلّق بأبي تمام ، ص 76 .

(43) أبو تمام : الديوان 4 \ 46 .

وقوله:

تُوفِّيتِ الآمَالَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ (44)

فالموت جعل المرثي في شغل عن السفر والترحال، وفي هذا تأكيد ضرورة الرحيل، ليبقى الإنسان محتفظا بمكانته بين قومه وأهله، وتأكيد أن الآمال تتحقق بالتجوال.

وأكثر منه في النسب، ومن ذلك أن الهجر محكم الفتل شديد الإحكام، يقول:

تَصَدَّتْ وَحَبْلُ الْبَيْنِ مُسْتَحْصِدٌ شَرُّرٌ وَقَدْ سَهَّلَ التَّوْدِيْعُ مَا وَعَرَ الْهَجْرُ (45)

فلا نكاد نمر عن تجربة عشق إلا وفيها رحيل ووداع وألم، وبغير الرحيل لا تكتمل قصة الحب، ولا تُسج خيوطها، وإن تمت بغيره كانت قصة فجّة، بسيطة.

وفي الفخر أيضا يقول:

أَلَا صَنَعَ الْبَيْنُ الَّذِي هُوَ صَانِعٌ فَإِنْ تَكَ مِجْزَاعًا فَمَا الْبَيْنُ جَارِعٌ (46)

فقد صنع بك البين ما كنت تحذره، فإن شئت فاجزع، فالبين لا يبالي بجزعك، فيتوقف عن تعذيب الناس، وإيلامهم. ومن هنا فالبين أقوى من صاحبه وأبقى، يؤلم ولا يتألم، يفرق ولا يبالي.

الصور السلبية:

تتعدّد صور البين المؤلمة في شعر أبي تمام، فتتوالى معها موازنات تميل لصالح المكان الأول؛ مرتع الذكريات، ومهد الطفولة، ومستودع الأسرار، أما الرحيل فيجرّعه الحنظل، ويتركه مثقلا بالهموم والمتاعب، يقول:

الْبَيْنُ جَرَّعَنِي نَقِيْعَ الْحَنْظَلِ وَالْبَيْنُ أَتَكْنِي وَإِنْ لَمْ أَتُكَلِّ

(44) المصدر السابق 4 \ 80 .

(45) المصدر السابق 4 \ 567 .

(46) المصدر السابق 4 \ 578 .



ما حسرتي أن كُذتْ أفضي إنما      حَسَرْتُ نَفْسِي أَنْتِي لَمْ أَفْعَلِ  
نَقَلَ فَوادِكَ حَيْثُ شِنْتَ مِنَ الْهَوَى      مَا الْحَبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ  
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْتِفُهُ الْفَتَى      وَحَيْنُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلٍ<sup>(47)</sup>

فيقابل الحنظلَ ومراره، حنينٌ وشوقٌ للمكان الأول، وقد أراد الشاعر من ذلك الكشف عن انشطار النفس وتوزعها بين قهر البين، ورغبتها في الاستقرار والهدوء؛ بالعودة إلى المكان الأول والحبیب الأول .

ويتحسر على مفارقتة الشام، حيث الوطن الذي هو نعيمه، وحيث أصدقاؤه وأهله، ويرى أنه برحيله فقد السعادة والأمان، يقول:

فَقَدْ فَارَقْتُ بِالْغَرِيبِ دَارًا      بِأَرْضِ الشَّامِ حَفًّا بِهَا النَّعِيمُ  
هِيَ الْوَطَنُ الَّذِي فَارَقْتُ فِيهِ      وَفَارَقْتِي الْمُسَاعِدُ وَالنَّدِيمُ  
وَكَنتُ بِهَا الْمُمْتَنِعُ غَيْرَ وَعْدٍ      وَلَا تَكْدٍ إِذَا حَلَّ الْعَظِيمُ<sup>(48)</sup>

فهذا انتصار آخر لمكان الأحبة والأهل، وكأنَّ لسان الشاعر ما قاله زهير:

فَقَرَّيْ فِي بِلَادِكَ إِنْ قَوْمًا      مَتَى يَدْعُوا بِبِلَادِهِمْ يَهْوُونَا<sup>(49)</sup>.

ولم يكن افتقاده للشام . موطنه . فحسب، وإنما افتقد بلادا كثيرة زارها وابتعد عنها، فغدا مدمنا على البكاء، ودائم الدعاء لها بالسقيا، وهذا يكشف بوضوح موقفه الإيجابي من تلك البلاد، ولهذا افتقدها وحنَّ إلى أهلها، وفي ذلك يقول :

وَمَا أَبْقَى عَلَى إِدْمَانٍ هَذَا      وَلَا هَاتَا الْعْيُونُ وَلَا الْقُلُوبُ

<sup>(47)</sup> أبو تمام : الديوان 4 \ 253 .

<sup>(48)</sup> المصدر السابق 4 \ 537 .

<sup>(49)</sup> ابن أبي سلمى ، زهير : الديوان ، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع ، ( د . ت ) ،

على أنّ الغريب إذا استمرّت به النوى أسى الغريب  
ونعم مسكن البرحاء . حلّت به فأقامت . الدمع السكوب  
أروخ حمى العراق فتدريني زماة جوى لشجو ما تُصيب  
وتسعنني دمتق وساكنوها ولا صدّد دمتق ولا قريب<sup>(50)</sup>

فاستمرار النوى يفضي إلى إدمان . وتتوالى صورالرحيل السلبية ليتساوى الفراق والموت في الأثر وحدود الإيلام، ومن ذلك قوله :

الموت عندي والفرا ق كِلاهما ما لا يُطاق  
يتعاونان على النفو سي فذا الحمام وذا السباق  
لو لم يكن هذا كذا ما قيل موت أو فراق<sup>(51)</sup>

وهذا الموقف الذي يقارب فيه بين الفراق والموت في توأمة سلبية جزء من ثنائيات تقابلية درج عليها أبو تمام في شعره<sup>(52)</sup> .

---

<sup>(50)</sup> أبو تمام : الديوان 4 \ 552 .

<sup>(51)</sup> المصدر السابق 4 \ 240

<sup>(52)</sup> فتارة بين الشيب والموت في قوله:

كلّ داعٍ يُرجى الدّواء له إلا الفظيعين : مبةً ومشيياً

أبو تمام : الديوان 1 \ 159

وتارة بين صحو قبل المطر وصحو بعد المطر :

مطرٌ يذوب الصّحْوُ منه وَبَعْدَهُ صَحْوٌ يَكَادُ مِنَ الْعَضَارَةِ يُمْطَرُ

أبو تمام : الديوان 2 \ 192 .

وتارة بين غيث ظاهر ، وآخر مضمّر :

ولا يقبل أبو تمام فراق المحبوبة، ولا يرحب فيه، أما هي فإذا دعاها البين لبته مسرعة غير  
آبهة بمشاعره، يقول :

وما كانَ إلا أن تولَّتْ بها النَّوى      فوَأَى عَزَاءَ القَلْبِ لَمَّا تَوَلَّتِ

...

وَلَمَّا دعاني البينُ وُلِّيتُ إذ دَعَا      ولَمَّا دَعَاها طَاوَعَتْهُ وُلِّيتُ<sup>(53)</sup>

فالشاعر يجري موازنة بين موقفها وموقفه من الرحيل؛ فهو لم يستجب له لما دعاه؛  
ليقينه أنه لا يرحم، أما هي فتستجيب رغبة في تعذيبه وإيلامه. فقد رأت أن الفراق أمر طعما،  
وأقوى تأثيرا في القلوب يقرحها ويُدْمِئها، ولذلك سعت إليه ، يقول :

أَبَتْ إِلا النَّوى بَعْدَ اقْتِرَابِ      وإِلا هَجَرَ ذِي مِقَّةٍ وَدَوْدِ

رَأَتْ أَنَّ الفِرَاقَ أَمْرٌ طَعْمًا      وَأَفْرَحُ لِلقُلُوبِ مِنَ الصُّدُودِ<sup>(54)</sup>

ويقسّم الفراق إلى نوعين: فراق البعد، وفراق الهجر، يقول :

فَفِرَاقٌ أَصابني مِنْ فِرَاقِ      وفِرَاقٌ أَصابني مِنْ صُدُودِ<sup>(55)</sup>

---

غيثان فالأنواء غيثٌ ظاهرٌ      لك وجهه والصحو غيثٌ مضمُرٌ

أبو تمام : الديوان : 192\2 .

وتارةً بين أشعة شمسيّة ، وضياء قمري " :

تريا نهارا مشمسا قد شابه      زهر الرّيا فكأتما هو مقمرٌ

أبو تمام : الديوان : 194\2 .

(53) المصدر السابق 1 300 .

(54) المصدر السابق 4 635 .

(55) المصدر السابق 4 190 .

فيستخدم أصاب، رابطا بين الفراق والمصيبة في الأثر والنتائج ، ثم ينتقل إلى فراق  
الهجر والصدود ويرى أنه أصعب وأمرّ، ولهذا يبحث عن الصبر، والسلوان فلا يجد. يقول:

مِنْ أَيْنَ لِي صَبْرٌ عَلَى الْهَجْرِ      لَوْ أَنَّ لِي قَلْبًا مِنْ صَخْرٍ؟<sup>(56)</sup>

وتضيق الدنيا بما رحبت في عينيه فيشعر أنه في حبس يُقيد جسده ويمنعه من حركة،  
فيها أمل ونشاط وحرية؛ بسبب هجر المحبوبة ، فيقول :

لَقَدْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ بِأَسْرَهَا      بهجرانهِ حَتَّى كَأَنِّي فِي حَبْسٍ<sup>(57)</sup>

ومع الفراق يذكر التبدد الذي يجمد حركة العطاء عند الإنسان، ويجعله عبثيا تستوي في نظره  
المتناقضات ، فينتفي معه وجود الطموح، أو الرغبة بدفع عجلة الحياة. يقول:

لم تذكرين مع الفراق تبددي      وبراعة المشتاق أن يتبددا<sup>(58)</sup>

ويتهاكك جسده، وتتوالى عبراته، بسبب الصدود والفراق، ولهذا يقول:

لَكَ عِلْمٌ بِعَبْرَتِي وَاشْتِيَاقِي      والذي بي من لوعةٍ واحتراقٍ

ولكَ الظَّرْفُ وَالْمَلَاخَةُ وَالْحُسْدُ      بنُ وَطِيبِ الْأُرْدَانِ وَالْأَخْلَاقِ

وقَبِيحٌ بِأَنْ تُعْرَضَ جِسْمِي      ما أرى مِنْ مَصَارِعِ الْعَشَاقِ

فَعَلَامَ الصُّدُودُ فِي غَيْرِ جُرْمٍ      والصُّدُودُ الْفِرَاقُ قَبْلَ الْفِرَاقِ؟<sup>(59)</sup>

فالموازنة بين الحاليين غير عادلة، فمفردات الشاعر عند الفراق: دموع، واشتياق، ولوعة،  
واحتراق، ومفردات المحبوبة: الظرف، والملاحة، والحسن، وطيب الأردن، والصدود، ودلالة  
ذلك عدم مبالاة المحبوبة، مقابل حالة التهاكك التي تعيشها روحه، ويعيشها جسده.

<sup>(56)</sup> أبو تمام : الديوان 205١4 .

<sup>(57)</sup> المصدر السابق 220١4 .

<sup>(58)</sup> المصدر السابق 103،102١2 .

<sup>(59)</sup> المصدر السابق 241١4 .

ويشير إلى أنّ البين لا يفتأ يلاحقه حتّى يقضي عليه، ويؤكد ذلك بقوله: لو كان لي ألف  
نفس ما توقّف عن ملاحقتي حتّى يأتي على آخرها، يقول:

فلو أنّ نفسي ألف نفسٍ لما انتننتُ      يدُ البينِ أو تودي بأخرها نفساً<sup>(60)</sup>

ويكرّر هذا المعنى في قوله:

مُتَطَلِّبُ بصدوده قتلي      فزُد المحاسنِ وجْههُ شُغلي<sup>(61)</sup>

ولا يتحرّج من الاعتراف بالبكاء على المحبوبة حولاً كاملاً بكاء متواصل؛ لما تركه الفراق  
من حرقة وألم، يقول:

ظننوا فكان بكاي حولاً بعدهم      ثمّ ارعويثُ وذاك حُكْمٌ ليبيد<sup>(62)</sup>

ويشكو فراق الأحبة، ويجعل فراقهم أصعب من الرحيل عن الدنيا، يقول:  
لستُ أبكي ذهابَ عيني لعيني      غيرَ أنّي أبكي لأنّ لا أراكا

ما فراقُ الدنيا أبالي ولكن      في فراقِ الدنيا فراقُ هواكا<sup>(63)</sup>

ويعترف أنه عريق في دموع الفراق؛ لأنّ دموعه تعودت على الانحدار في كل يوم :

واستميحا الجفونَ ديرةَ دمعٍ      في دموعِ الفراقِ غيرَ تصيق<sup>(64)</sup>

ويكاد ينسى محبوبته لطول فراقها، على الرّغم من اشتعال النّار في صدره، ونراه يكرّر  
مفرداته التي يداوم على استخدامها في هذا الموقف ( توقّد، نيران، ذكراك، قلبي، بكيتك،  
النّأي، الهوى، الصدود، القرب، البين، الراحة، الوصل، سهم البين، الصبر، الحب ) يقول:

(60) أبو تمام : الديوان 222\4 .

(61) المصدر السابق 4 \ 257 .

(62) المصدر السابق 1 \ 386 .

(63) المصدر السابق 4 \ 248 .

(64) المصدر السابق 2 \ 431 .

ذَكَرْتِكَ حَتَّى كِدْتُ أَنْسَاكَ لِلَّذِي تَوَقَّدُ مِنْ نِيرَانِ ذِكْرِكَ فِي قَلْبِي

بِكَيْتِكَ لَمَّا مَثَلَ النَّأْيُ بِالْهَوَى كَأَنْ لَمْ يُمَثَّلْ بِي صَدُودِكَ فِي الْقُرْبِ

وَهَلْ كَانَ لِي فِي الْقُرْبِ عِنْدِكَ رَاحَةٌ وَوَصْلُكَ سَهْمُ الْبَيْنِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ؟

بَلَى كَانَ لِي فِي الصَّبْرِ عِنْدَكَ مُعَوَّلٌ وَمُنْدُوحَةٌ لَوْلَا فَضُولِي فِي الْخُبِّ (65)

ويوم الفراق يوم حزن وشؤم، بل يوم جارف، يجرف النفوس الى الهلاك بعد انهمار الدموع كالسيول، يقول:

إِنَّ يَوْمَ الْفِرَاقِ يَوْمٌ عَبُوسٌ أَيُّ سَيْلٍ تَسِيلُ فِيهِ النَّفُوسُ ! (66)

ويترك الشاعر معلولا، فتتفرق نفسه وأعضاؤه، ولهذا يدعو عليه بالألا يرى سقيا الخير والنماء يقول :

يَوْمَ الْفِرَاقِ لَقَدْ خُلِفْتَ عَظِيمًا وَتَرَكْتَ جِسْمِي . لَا سُقِيَتْ . سَقِيمًا

مَا لِلْفِرَاقِ تَفَرَّقَتْ أَعْضَاؤُهُ مَا زَالَ يَعْصِفُ بِاللِّقَاءِ قَدِيمًا !؟ (67)

ولا يجد راحة حتى يلتقي بالمحبيب، ويستعيض عن التفكير بالبكاء، ولا يفتأ يدعو على الهجر، يقول:

رَاحَتِي فِي الْبُكَاءِ حَتَّى أَرَاكَ إِنَّ لِي مِنْكَ شَاغِلًا عَنْ سِوَاكَ

تَعَسَ الْهَجْرُ وَالَّذِي شَأْنُهُ الْهَجْرُ رُ مِنْ النَّاسِ كُلِّهِمْ حَاشَاكَ . (68)

ويعبت الفراق بمشاعره، ولا يعطيها وزنا، يقول:

(65) أبو تمام : الديوان 4 \ 154 .

(66) المصدر السابق 4 \ 214 .

(67) المصدر السابق 4 \ 539 .

(68) المصدر السابق 4 \ 250 .

عَبَتْ الْفِرَاقُ بِدَمْعِهِ وَبِقَلْبِهِ      عَبَتْ يَرُوحُ الْجِدُّ فِيهِ وَيَعْتَدِي (69)  
وللنوى أشياؤه التي تتقاطع مع عناصر ريب الزمان، فيواجه ثقلها إلى جانب أثقال مصائب  
الزمان، يقول:

بَدَتْ لِلنَّوَى أَشْيَاءُ قَدْ خَلْتُ أَنَّهَا      سَيِّدُونِي رَيْبُ الزَّمَانِ إِذَا تَبَدُّو (70)  
والنوى يسقي الديار السمَّ الناقع؛ ليقتل ما تبقى فيها من معالم الحياة، يقول:

دَارَ سَقَاهَا بَعْدَ سَكَّانِهَا      صَرَفَ النَّوَى مِنْ سَمِّهِ النَّاقِعِ (71)  
ومع الرحيل يرحل العزاء، وكان الرحيل والعزاء على ميعاد، يقول:

رَحَلَ الْعَزَاءُ مَعَ الرَّحِيلِ كَأَنَّمَا      أَخَذَتْ عُهُودُهُمَا عَلَى مِيعَادِ  
جَادَ الْفِرَاقُ بِمَنْ أَضِنُ بِنَأْيِهِ      بِمَسَالِكِ الْإِثْهَامِ وَالْإِنْجَادِ  
وَكَانَ أَفْنَدَةَ النَّوَى مِصْدُوعَةً      حَتَّى تَصَدَّعَ بِالْفِرَاقِ فُوَادِي (72)

ويتألم كثيرا حين يلمس عن التغير الذي ألمَّ بالمحبوبة وديارها بعد الفراق فيقول:

لَا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ      خَفَّ الْهَوَى وَتَوَلَّتِ الْأَوْتَارُ  
كَانَتْ مُجَاوِرَةً الطُّلُولِ وَأَهْلِيهَا      زَمَنًا عَذَابَ الْوَرْدِ فَهِيَ بِحَارُ (73)

---

(69) المصدر السابق ١2 / 45 .

(70) أبو تمام : الديوان ١2 / 80 .

(71) المصدر السابق ١2 / 351 .

(72) المصدر السابق ١2 / 127 .

(73) المصدر السابق ١2 / 166 .

إنّ هذه المعاني الكثيرة التي طلع بها، وهذه الصور المتنوعة ارتبطت بتجربة غنيّة، عانى خلالها أبو تمام من فراق أحبّته في أوقات كثيرة، وتجرّع آلاما لم يكن ليقوى عليها لولا إيمانه الشديد بجدوى التّفكّل والحركة .

واللافت أنّ الشاعر لم يكن يجافي الصّواب في نقل مشاعره؛ رغبة منه في الاعتزاز بطاقة الجّد، أو صلابة النفس، وإنّما تحدّث عن تجربته بصدق وموضوعيّة، مُعملا عقله فيما يقدّمه. فكان شعره صناعة عقلية، امتزج فيها العقل بالشعور.

وعلى الرّغم من اعتماد هذا اللون من الشّعْر على الانفعال والدّفقات الشعوريّة إلا أنّه حمل مفردات وصورا كثيرة غامضة، لا يعيها سوى من كان لديه ميول فلسفيّة، وممتعة في التعامل مع الغريب. وقد جاء هذا منسجما مع الغاية من الشعر عند أبي تمام؛ فقد آمن أنّ الشعر موجّه للخاصة من فئة المثقّفين، وليس للعامة، ولهذا عدّه الآمدي في الموازنة من الذين أفسدوا الشعر، مكملا ما بدأه مسلم بن الوليد.

ويلاحظ أيضا أنّه بالغ في البديع وعقدّ فيه، فطباقه كان نوافر أضداد<sup>(74)</sup>، وجناسه كان مشفوعا بالصور، واستعاراته غريبة، العلاقة فيها بين المشبّه والمشبّه به علاقة واهية، لا يدركها سوى من كان على حظ كبير من الثّقافة والوعي .

## الخاتمة

قامت الدّراسة على ثنائيّة تعلّقت بموضوع مهم من موضوعات الأدب، وهو الرّحيل، وقد تناولته الشعراء في معظم أغراضهم، فذكروا في الغزل رحيل المحبوبة أو هجرها، وتناولوا في المديح الإرتحال إلى الممدوح وقطع الطرق الوعرة المُهلكة للوصول إليه؛ ليجزل لهم العطاء، وعرضوا له في أغراض أخرى، لكننا لا نجد شاعرا تناول هذا الموضوع بآثاره الإيجابية أو السلبية على النفس والعقل والجسد مثل شاعرنا أبي تمام .

(74) خليف ، يوسف : في الشّعْر العبّاسي نحو منهج جديد ، دار غريب ، القاهرة ، ( د . ت ) ، ص 101 .



فرحلات أبي تمام إلى مصر والشام والعراق وخراسان وغيرها أغنت ثقافته، وصقلت عقله وروحه، فغدا من أهم شعراء الحكمة في تاريخ الشعر العربي، وحكمه لم تكن حكما ضيقة تناسب البسيط من الأمور فحسب، وإنما كانت حكما كبيرة فضفاضة، تتناسب وحركته في الحياة، وقراءاته التي أحاطت بالعربي القديم، والإسلامي الجديد، والفارسي، واليوناني، والهندي.

والرحيل الذي عاشه أبو تمام في معظم سنّيه عمره، استوعب الطموح والأمل والتجدد، وفي المقابل استوعب الشوق والألم والمعاناة والانتظار وتهالك الجسد. فتشكّلت لديه مع مرور الوقت رؤية ناضجة مختصرة في الماديات والروحانيات المحيطة بموضوع الرحيل، نسجها لنا في شعره معززة بثقافة عقلية واسعة.

ومما اختصر به رأيه في جمال الرحيل ومنفعته، قوله:

وطولُ مقامِ المرءِ في الحَيِّ مُخْلِقٌ      لِدِيَابِجَتِيهِ فَاغْتَرِبُ تَتَجَدَّدُ

فإنِّي رأيتُ الشَّمْسَ زِيدتْ مَحَبَّةً      إلى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ

انتهى

#### قائمة المصادر والمراجع:

- . البديعي، الشيخ يوسف: هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام، تح عبدالإله نبهان، وعبدالكريم الحبيب، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، 2003م .
- . أبو تمام: الديوان، شرح الخطيب التبريزي، تح محمد عبده عزّام، دار المعارف، مصر، 1964م .
- . خليف، يوسف: في الشعر العباسي نحو منهج جديد، دار غريب، القاهرة، (د . ت).

. ابن أبي سلمى، زهير: الديوان، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع، ( د . ت  
(.

. سليطين، فيصل: أبو تمام في دائرة الضوء . دراسة وتحليل، دار الينايع، دمشق، ط1،  
2007 م .

. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: أخبار أبي تمام ، حققه وعلق عليه محمد عبده عزام  
وآخرون، قدم له أحمد أمين، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1980م .

. المتنبي: الديوان، شرح عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ( د . ت ) .

. محمد عزام: النص الغائب، تجليات التناس في الشعر العربي الحديث، اتحاد الكتاب العرب،  
دمشق، 2011 م .

. الميداني: مجمع الأمثال، تح محمد محيي الدين عبدالحميد، دار النص، ( د ، ت ) .

. الواد، حسين: اللغة الشعر في ديوان أبي تمام، دار الجنوب، تونس، ( د ، ت ) .